تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن المتقين D أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال وقوله تعالى : { آخذين ما آتاهم ربهم } قال ابن جرير : أي عاملين بما آتاهم ا من الفرائض { إنهم كانوا قبل ذلك محسنين } أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضا ثم روي عن ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن أبي عمر عن مسلم البطين عن ابن عباس Bهما في قوله تعالى : { آخذين ما آتاهم ربهم } قال : من الفرائض { إنهم كانوا قبل ذلك محسنين } قبل الفرائض يعملون وهذا الإسناد ضعيف ولا يصح عن ابن عباس Bهما .

وقد رواه عثمان بن أبي شيبة عن معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي عمر البزار عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس Bهما فذكره والذي فسر به ابن جرير فيه نظر لأن قوله تبارك وتعالى آخذين حال من قوله في جنات وعيون فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ماآتاهم ربهم أي من النعيم والسرور والغبطة وقوله D : { إنهم كانوا قبل ذلك } أي في الدار الدنيا { محسنين } كقوله جل جلاله : { كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية } ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا : { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون } اختلف المفسرون في ذلك على قولين : (أحدهما) أن { ما } نافية تقديره كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه قال ابن عباس Bهما : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا وقال قتادة عن مطرف بن عبد ا : قل ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلون فيها D إما من أولها وإما من أوسطها وقال مجاهد : قل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون وكذا قال قتادة وقال أنس بن مالك Bه وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وقال أبو جعفر الباقر كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة (والقول الثاني) أن { ما } مصدرية تقديره كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم واختاره ابن جرير .

وقال الحسن البصري { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون } كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر وقال قتادة : قال الأحنف بن قيس { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون } كانوا لا ينامون إلا قليلا ثم يقول : لست من أهل هذه الاية وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا إذا قوم لا نبلغ أعمالهم كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب ا وبرسل ا مكذبون بالبعث بعد الموت فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقال عبد

الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا ذكر ا تعالى قوما فقال : { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون } ونحن وا قليلا من الليل ما نقوم فقال له أبي Bه : طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى ا إذا استيقظ وقال عبد ا بن سلام انجفل فيمن فكنت إليه الناس انجفل المدينة م ّوسل عليه ا صلى ا رسول قدم لما : Bه فلما رأيت وجهه صلى ا عليه وسلّم عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب فكان أول ما سمعته صلى ا عليه وسلّم يقول : [يا أيها الناس أطعموا الطعام وصلوا الأرحام وأفشوا السلام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثني حيي بن عبد ا عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد ا بن عمر Bهما قال : إن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها] فقال أبو موسى الأشعري Bه : لمن هي يا رسول ا ؟ قال صلى ا عليه وسلّم : [لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام] وقال معمر في قوله تعالى : { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون } كان الزهري والحسن يقولان كانوا كثيرا من الليل ما يصلون وقال ابن عباس Bهما وإبراهيم النخعي { كانوا قليلا من الليل ما يهجعون } ما ينامون وقال الضحاك { إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا } ثم ابتدأ فقال : { من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون } وهذا القول فيه بعد وتعسف .

وقوله D : { وبالأسحار هم يستغفرون } قال مجاهد وغير واحد : يصلون وقال آخرون : قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى : { والمستغفرين بالأسحار } فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة Bهم عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه قال : [إن ا تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر] وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال لبنيه { سوف أستغفر لكم ربي } قالوا أخرهم إلى وقت السحر .

وقوله تبارك وتعالى : { وفي أموالهم حق للسائل والمحروم } لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال : { وفي أموالهم حق } أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدىء بالسؤال وله حق كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا : حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبي يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي Bهما قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [للسائل حق وإن جاء على فرس] ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري به ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب Bه وروي من حديث الهرماس بن زياد مرفوعا وأما المحروم فقال

ابن عباس Bهما ومجاهد : هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم يعنى لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها وقالت أم المؤمنين عائشة Bها : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه وقال الضحاك : هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب قضى ا تعالى له ذلك وقال أبو قلابة : جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل فقال رجل من الصحابة Bهم : هذا المحروم وقال ابن عباس Bهما أيضا وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر يسأل لا الذي المحروم : والزهري قتادة وقال المحارف المحروم : رباح أبي بن وعطاء هماB الناس شيئا .

قال الزهري وقد قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه] وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما من وجه آخر وقال سعيد بن جبير : هو الذي يجيء وقد قسم المغنم فيرضخ له وقال محمد بن إسحاق : حدثني بعض أصحابنا قال : كنا مع عمر بن عبد العزيز Bه في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر Bه كتف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم وقال الشعبي : أعياني أن أعلم ما المحروم واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله سواء كان لا يقدر على الكسب أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد Bه قال : إن رسول ا صلى ا عليه وسلّم بعث سرية فغنموا فجاءه قوم لم يشهدوا الغنيمة فنزلت هذه الاية { وفي أموالهم حق للسائل والمحروم } وهذا يقتضي أن هذه مدنية وليس كذلك بل هي مكية شاملة لما بعدها وقوله D : { وفي الأرض آيات للموقنين } أي فيها من الايات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه ولهذا قال D : { وفي أنفسكم أفلا تبصرون } قال قتادة : من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة .

ثم قال تعالى : { وفي السماء رزقكم } يعنى المطر { وما توعدون } يعني الجنة قاله ابن عباس Bهما ومجاهد وغير واحد وقال سفيان الثوري : قرأ واصل الأحدب هذه الاية { وفي السماء رزقكم وما توعدون } فقال : ألا إني أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ؟ فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فلما أن كان اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب وكان له أخ أحسن نية منه دخل معه فصارتا دوخلتين فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت وقوله تعالى : { فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون } يقسم تعالى بنفسه

الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة وهو حق لا مرية فيه فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون وكان معاذ Bه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا لحق كما أنك ههنا قال مسدد عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن البصري قال : بلغني أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [قاتل ا أقواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا] ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن فذكره مرسلا